الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الأنثروبولوجيا:

منذ نشأتها حاولت الأنثروبولوجيا فهم الإنسان ودراسته دراسة شاملة، وتبعًا لذلك فقد برزت في كل مراحل نشأتها وتطورها العديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية والنظرية، التي حاولت تفسير أصل الإنسان والثقافة والمجتمع وتطورها، وكذلك فهم الاختلافات الموجودة بين البشر والثقافات والبنى الاجتماعية وتفسيرها، ومن بين أهم الاتجاهات التي سنركز عليها خلال هذه الوحدة: كل من الاتجاه التطوري والاتجاه الانتشاري والاتجاه الوظيفي.

أولا. الاتجاه التطوري:

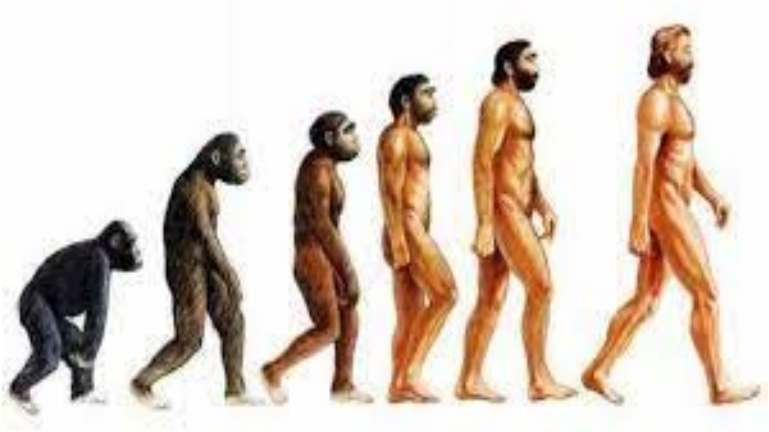

عنوان الصورة: التطور البيولوجي للإنسان حسب نظرية داروين.

يمثل الاتجاه أو التيار التطوري اتجاه المدرسة الكلاسيكية في الأنثروبولوجيا، حيث برز هذا الاتجاه في النصف الثاني من القرن 19 (وبالضبط خلال الفترة الممتدة بين 1860–1900)، وقد تأثر رواد هذا الاتجاه بأفكار التطوريين البيولوجيين وبالخصوص البيولوجي البريطاني **تشارلز داروين** ونظريته حول التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي*. والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- إن جميع أشكال الحياة تتغير وتنتج أشكالا جديدة باستمرار.
- بعض هذه الأشكال أكثر ملائمة مع الظروف البيئية من غيرها.
- إن الأشكال الأكثر ملائمة للبقاء والحياة تبقى وتستمر، أما الأخرى فيقضى عليها.

* ويرى الكثير من الباحثين أن الاتجاه التطوري في الأنثروبولوجيا لا يرتبط مباشرة بأعمال داروين، ولكن له إرهاصات سابقة تسبق ذلك بكثير، فقد تأثر الفكر التطوري بأفكار باحثين آخرين أمثال: البيولوجي الفرنسي "لامارك" وكتابه "فلسفة الحيوان"، و"جفروي سنتيلر" وكتابه أصل وحدة التركيب العضوي" سنة 1828، كتاب الألماني باخوفن بعنوان "في حق الأم" سنة 1856، كتاب "هنري مين" بعنوان "القانون القديم"، وكذلك أعمال وكتابات "هربت سبنسر" التي تزامنت مع أعمال داروين، ودون أن ننسى أعمال "روبرت مالتوس" والتي سبقت داروين بستين سنة تقريبا وكان لها تأثير كبير على أفكار داروين في حد ذاته. وكذلك أفكار جد داروين (أراسموس داروين" في القرن 16 حول تطور الكائنات الحية في سبيل تكيفها مع البيئة.

فمضمون تحليل داروين الذي ظهر في كتابيه "***أصل الأنواع***" سنة 1859 و"**أصل الإنسان**" سنة 1874، يتمحور حول فكرة أن الخلائق بما فيها الإنسان قد تطورت من **مستويات دنيا** إلى **مستويات عليا متخصصة**، بمعنى أن أصول الخلائق ترجع إلى مصادر واحدة ثم تفرعت عنها هذه الفروع من الخلائق التي نشاهدها الآن، وذلك ليصل إلى نتيجة أن الجنس البشري "تطور من تنظيمات حيوانية دنيا بشكل بطيء إلى أن وصل إلى الشكل المتكامل الذي هو عليه الإنسان الآن.

ففي نظريته حول **النشوء والارتقاء**، يرى داروين أن مسار التطور البيولوجي للبشر والكائنات الحية ينطلق من **نفس الأصل** (حيث أن جميع الكائنات الحية نشأت من المادة غير الحية في مرحلة قديمة جدًا من التاريخ الجيولوجي للأرض)، ويستمر عبر **مسار تطوري** (يقوم على الانتقال البطيء من الحالة الدنيا إلى الحالة العليا ومن الأسوء إلى الأفضل)، عن طريق عملية **الانتقاء أو الانتخاب الطبيعي** وفق مبدأ **البقاء للأصلح**، فالكائنات الحية التي لديها القدرة على البقاء والتكيف مع الطبيعة تبقى وتتطور بينما تفنى الأخرى التي ليست لديها القدرة على ذلك، حيث تنقل الأولى صفاتها الوراثية المكتسبة إلى أنسالها، فهكذا مع المرور الأجيال تتحول هذه التغيرات البسيطة إلى تغيرات أكبر.

فالأسس التي يقوم عليها التطور البيولوجي حسب داروين هي **الصدفة والانتخاب الطبيعي**، حيث يرى داروين أن الكائنات الحية والحياة قد نشأت صدفة من المادة غير الحية نتيجة سلسلة من التفاعلات الكيميائية النادرة الحدوث لدرجة لن تتكرر بعد ذلك. ثم إن عملية نشوء وتطور الأنواع المختلفة من الكائنات الحية بما فيها الإنسان تقوم على خمسة عوامل: **1- الوراثة:** الكائن الحي يلد ويأتي بكائن مشابه له. **2- التحول:** أثناء الإنجاب والتكاثر تكون الأنسال الجديدة مشابهة لسابقتها وليست متماثلة ومتطابقة معها (أي أنها تحمل تحولات بسيطة في كل مرة لا تظهر بشكل واضح إلا بمرور أجيال طويلة). **3- التوالد:** ما يولد من الكائنات الحية أكثر مما يقدر له البقاء. **4- الصراع من أجل البقاء:** بما أن عدد الكائنات المتوالدة كبير مقارنة بالموارد المتاحة في الطبيعة ينشأ بينها صراع من أجل البقاء. **5- البقاء للأصلح:** فالكائنات التي لها القوة والحيلة والأكثر قدرة على مقاومة العوامل الطبيعية تبقى وتنتج نسلا يرث الصفات التي مكنتها من الحياة والبقاء.

تفاعل الأمونيا + أملاح الفوسفور+ الضوء+ الحرارة+ الكهرباء ← ساعد في تكوين مركب من البروتين منه نشأ كائن أحادي الخلية ← ومنه نشأت وتطورت جميع الكائنات الحية المختلفة بما فيها الإنسان والحيوان والنبات (أي أنها جميعًا تعود إلى نفس الأصل)

وفي مسار التطور البشري من الناحية البيولوجية: يرى أنصار التطورية أن الإنسان العاقل (البشر) يمثل أرقى الكائنات الحية، وقد ارتقى هو كذلك عن طريق عملية الارتقاء أو الانتخاب الطبيعي عبر مسيرة تطورية من الشكل الأدنى إلى الأرقى من خلال سلسلة استمرت لملايين السنين، بدأت كلها من منطلق واحد ألا وهو كائن أحادي الخلية، وذلك وفق المسار والسلسلة التالية:

البروتوزوا
(كائنات وحيدة الخلية) مثل: الأميبا والبريمسيوم

تطور وارتقاء

الميتازوا
(كائنات متعددة الخلايا) تميز بكونها ثنائية الجنس (أي ذكر وأنثى في نفس الوقت)

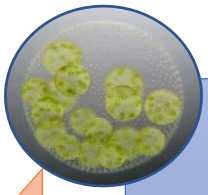

تطور وارتقاء

الحبليات:
تتميز بوجود حبل عصبي يقوم بدور العمود الفقري أو النخاع الشوكي

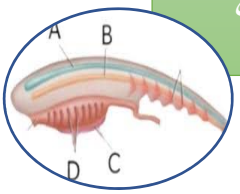

تطور وارتقاء

الفقريات:
تتميز بوجود العمود الفقري والقدرة على التنفس من خلال الخياشيم أو الرئتين. الطيور/ الأسماك/ الزواحف/ الأسماك/ البرمائيات.

تطور وارتقاء

الثدييات:
أرقى الكائنات العضوية. تتميز بالقدرة على الحمل والولادة+ وجود الأسنان والقواطع والأنياب والأضراس+ وجود الحجاب الحاجز

تطور وارتقاء

الرئيسيات:
أرقى رتبة في الثدييات. أشبه الكائنات بالإنسان (أسلاف مشتركة للبشر). تتميز بالقدرة على الإبصار وتحديد الألوان+ درجة عالية من الذكاء وسرعة الإدراك والنشاط الكبير+ استعمال اليد+ وجود الأظافر+ اعتدال القامة نوعًا ما.
أنواع الرئيسيات= عفريت الشجر / الليمورات/ ليمور الهند الشرقية/ قردة العالم القديم/ قردة العالم الجديد/ القردة الشبيهة بالإنسان مثل الشامبانزي والغوريلا/ القردة العليا/ الشبيه بالإنسان.

تطور وارتقاء

الإنسان العاقل HOMO SAPIENS
يمثل أرقى الكائنات الحية والإنسان الحالي (البشر). مر بمراحل تطورية ثلاثة هي: مرحلة ما قبل الإنسان قبل مليون سنة ثم مرحلة الكائن الأكثر قربا من الإنسانية near human ثم مرحلة الإنسان العاقل.
يتميز بازدياد حجم المخ+ اختزال الذيل نهائيا+ القامة المنتصبة+ الميل إلى العيش على الأرض واعتزال الحياة الشجرية + خصوصية الرؤية+ اللغة+ القدرة على التفكير والتعلم والتخيل+ القدرة على التكيف مع المعيشة في مختلف البيئات والأجواء بفضل الثقافة والتعلم

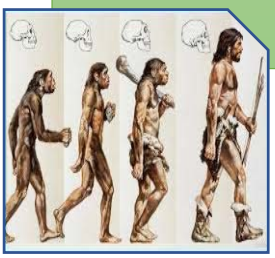

- حيث يرى التطوريون أن الإنسان أكثر شبها بقردة العالم القديم (القرد الإفريقي وهو نوع منقرض تم العثور عليه في الحفريات) أكثر من شبهه بقرد العالم الحديث (القرد الأمريكي). كما يرون أن القردة العليا عديمة الذيل (الشبيه بالإنسان) أقرب الأقرباء إلى الإنسان خاصة الغوريلا والشامبانزي، فهي تتميز بوجود بناء مماثل لبناء الإنسان عضوًا بعضو وعظمة بعظمة، كما أن لها مخ بيه بمخ الإنسان رغم صغر حجمه، إضافة إلى تماثل حواسها مع حواس الإنسان

(الشم والسمع والبصر)، كما تتشابه في الدم مع الإنسان من ناحية التركيب الكيميائي، فعملياتها وإمكانياتها الفعلية تطابق ما لدى الأطفال في سن 3 أو 4 سنوات.

– ومن بين الحجج التي يعتمد عليها التطوريون في التأكيد على صحة افتراضاتهم: التشابه الكبير بين الكائنات الحية، التشابه في التركيب العضوي بين الإنسان والحيوانات التي تليه في الرتبة، التشابه في الأنسجة وتركيب الدم، تشابه التكوين الجنيني، وجود بقايات أو مخلفات عصور قديمة في جسم الإنسان، تشابه القوى العقلية، وجود حفريات لكائنات شبيه بالإنسان.

➢ **ومن بين الإنتقادات التي تم توجيهها لنظرية النشوء والارتقاء لدى داروين:**

– العجز عن تفسير سر الحياة (الروح) أي الشيء الذي جعل المادة الجامدة تتحول إلى كائن حي؛

– وجود حلقتين مفقودتين في سلسلة التطور: الحلقة السابقة عن ظهور القدرة وأشباه القردة، والحلقة في الحقبة التي سبقت ظهور الإنسان وأشباه الإنسان؛

– انتقاد مسألة الانتقاء ومتى يكون الإنتقاء، فمثلا عند السمك 99% من البيض يفنى قبل اكتمال النمو وبالتالي لا يكون وفق مبدأ الأكثر قدرة على التكيف والبقاء؛

– كما أن الانتقاء لا يؤدي دائمًا إلى بقاء الأصلح، ففي كثير من الأحيان تبقى كائنات أخرى أقل قوة وقدرة على التكيف والبقاء.

➢ الاتجاه التطوري في الأنثروبولوجيا:

كل ما سبق ذكره فيما يتعلق بالنظرية الداوينية يمثل مدخل تمهيدي للفكر التطوري في الأنثروبولوجيا، فلقد تفاعلت المعارف الإنسانية والاجتماعية مع النظرية الداروينية، حيث استلهمت من أطروحات داروين مبدأ تطور الأشكال وانتقالها من حالة إلى أخرى، وجاءت كردة فعل على نظرية التدهور التي كانت سائدة خلال القرون السابقة (وقد سبق الإشارة إليها في المحاضرة السابقة)، واجتهد العلماء في المجال الإنساني والاجتماعي في مقاربة موضوعاتهم مقاربة تطورية، حيث أصبح الاعتقاد الراسخ أن كل ظاهرة موضوع الدراسة لا بد من معرفة أصولها وكيفية نشأتها ومراحل تطورها ومتابعة مساراتها المختلفة. وقد كان للاتجاه التطوري الفضل في احتضان الأنثروبولوجيا حين نشأتها خلال القرن التاسع عشر، فقد كان همّ الأنثروبولوجيين آنذاك هو فهم الكيفية التي تنشئ وتتطور من خلالها المجتمعات وثقافاتها، فموضوع البحث الأساسي بالنسبة للتطوريين هو **التفسير التاريخي** لمختلف المراحل التي مرت بها البشرية من خلال اكتشاف القوانين التي أتاحت عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وكان التطوريون يعتقدون **بوجود مسيرة خطية واحدة** تسير وفقها المجتمعات البشرية والثقافات والحضارات، وأن كل مجتمع لا بد له من الانتقال من مرحلة إلى أخرى دون مواجهة أشكال أخرى من التطور، لكن هذه النظرة لم تكن شاملة لجميع التطوريين، فقد رأى البعض أن التطور يسير بكيفية بطيئة ومتدرجة (فيما رأى البعض الآخر أنه يسير بوتيرة مختلفة من مجتمع لآخر).

ولعل ما يمكن الإشارة إليه بصورة عامة أن الفكر الاجتماعي التطوري يرى أن جميع المجتمعات البشرية ونظمها الاجتماعية تتغير، وهي في تغيرها تمر بمراحل تطورية معينة، كل مرحلة منها تمثل انتقال المجتمع من **حالة أقل رقيا إلى حالة أكثر رقيا**؛ وعليه تؤمن هذه النظرية بأن المجتمعات تتنقل باتجاه **التقدم الدائم** من البساطة البدائية إلى التعقيد، مثلما تتطور الأجزاء العضوية في الكائن البيولوجي عندما ينمو، وحسب هذه النظرية فإن التطور يتم عبر خط **مستقيم ومتصاعد** بحيث تشكل كل مرحلة أساسا لما بعدها.

من الأدنى ← مسار خطي حتمي للتطور ← **إلى الأرقى**

وقد كان المجتمع الغربي حسب أنصار هذا الاتجاه بمثابة **المرجع الأساسي** في قياس درجة تقدم وتخلف المجتمعات، فالمجتمع الغربي يمثل قمة مراحل التطور، وبالمقابل تمثل المجتمعات الأخرى التي تقبع في درجات دنيا من التطور الأصول الأولى للتطور بالنسبة للمجتمع الغربي، هذا الذي سوغ عملية (المقارنة بالنسبة للباحثين التطوريين، فكان **المنهج المقارن** أحد أهم المناهج البحثية لديهم)؛ ومن خلال دراسة الحفريات، الأنماط السلوكية، والتغيرات الثقافية عبر الزمن، سعى علماء هذا الاتجاه لفهم أصل الإنسان، تطوره، وتنوعه. ومن أهم رواد هذا الاتجاه "**جيمس فريزر**" و"**إدوارد تايلور**" و"**لويس هنري مورغان**" الذين قدموا مساهمات هامة في فهم التطور الاجتماعي والثقافي للبشر.

❖ باختصار، يقوم الفكر التطوري في الأنثروبولوجيا على أفكار ومبادئ مفادها:

- أن كل المجتمعات والثقافات والحضارات تتطور من حالة أدنى إلى حالة أرقى وأكثر رقيا؛
- وأن جميعها تمر في تطورها على نفس المراحل (أي أن مراحل التطور هي نفسها في جميع أنحاء العالم)؛
- كل شعب أو حضارة لا بد أن يمر بهذه المراحل بشكل لا يمكن تفاديه (حتمية التطور)؛
- مراحل التطور واحدة في مضمونها وأشكالها.

وقد قامت التطورية في المجال الثقافي على مبادئ أساسية هي: – **الوحدة النفسية للجنس البشري** (أي أن جميع البشر لديهم تركيب نفسي متطابق) – **وحدة التاريخ الإنساني** (أي أن جميع المجتمعات تمر بنفس المسار التاريخي التطوري من الأدنى إلى الأرقى) – **وحدة الثقافة** (أي أن جميع الثقافات هي واحدة والفرق والاختلاف بينها هو اختلاف في المرحلة التطورية التي هي فيها وفي سرعة الانتقال عبر هذه المراحل.

➢ وقد اعتمد أنصار هذا الاتجاه في اكتشافهم للقوانين التي تحكم عملية التقدم والتطور على **التاريخ التتبعي** من خلال **دراسة الأصول** (أصل المجتمع، أصل الثقافة، أصل المجتمع، أصل الزواج...)، **وتخمين البدايات** (كيف بدأ الدين مثلا) والبحث عن **البقايا أو الرواسب أو المخلفات** أي العادات والنظم

والأشكال التي بقيت من المجتمعات البدائية والقديمة ومقارنتها المجتمعات الحديثة وتتبع مسارها التاريخي، ومقارنتها بالبقايا الأثرية والبقايا الاجتماعية، والبحث عن تطورها من خلال دراسة أشكالها لدى المجتمعات البدائية بحثًا عن الأشكال الأولى للحياة البشرية. وكانوا في كثير من الأحيان يلجؤون إلى **التاريخ التخميني** في افتراض هذه الأشكال الأولية وفي تخمين مراحل تطورها وتقدمها في حالة عدم وجود دلائل ملموسة تثبت وجودها الواقعي.

فقد استعار علماء الأنثربولوجيا المفهوم البيولوجي للتطور، وأسقطوه على المجتمعات الإنسانية والثقافات والحضارات البشرية، واعتبروا أن السير الرتيب للمجتمعات الإنسانية، يسير وفق نفس الطريقة والخط والقانون "التطور" ولا يكون اعتباطيًا أو خاضعًا للصدفة، وقد أثّر هذا الاتجاه بقوة في الحقل الأنثروبولوجي، حيث اهتم هذا الاتجاه بدراسة **الأصول**، وتخمين البدايات الأولى للنظم (أصل الدين، أصل اللغة، أصل القانون، أصل الإنسان..)، كما اهتم **بالدراسة التتابعية** من خلال تبع نشأة الظواهر الاجتماعية من حالات بدائية ساذجة وبسيطة إلى أخرى معقدة وأكثر تركيبًا وتطورًا، والتي تبين كيف يحدث التغير في النظم، حيث أكد بعض علماء هذا الاتجاه على سبيل المثال أن تطور الأسرة كان وفق المراحل التالية: الإباحة الجنسية ثم الأسرة الأمومية ثم الأسرة الأبوية ثم الأسرة الزواجية الصغيرة؛ والنظام الاقتصادي كذلك من خلال المراحل: جمع الطعام ثم الصيد ورعي الماشية ثم الزراعة ثم الصناعية.

- **رواد الإتجاه التطوري:** برز في هذا الاتجاه العديد من العلماء والرواد والباحثين الأنثروبولوجيين لا يستع المقام لذكرهم جميعاً، لذلك سنركز على أهمهم .

1/ لويس هنري مورغان (1818- 1883):

كان الأمريكي "**لويس هنري مورغان**" أحد أهم أقطاب هذا الاتجاه من خلال أعماله التي تركزت على وجه الخصوص حول القبائل من سكان أمريكا الأصليين، وقد قدم مورغان إسهامات هامة حول حياة وثقافة هؤلاء السكان الذين عاش معهم، خاصة في عمله حول القرابة "**أنساق القرابة والمصاهرة للعائلة البشرية**" عام 1870، ولهذا فقد كانت القرابة مدخلا أساسيا لدراسة التطور الاجتماعي، فقد تغيرت مصطلحات القرابة مثلا بصورة بطيئة، وأعطت إشارات لفهم المراحل المبكرة للتطور الاجتماعي.

وفي كتابه المجتمع القديم الذي صدر عام 1877 يقر مورغان أن المجتمعات البشرية تمر بمراحل تطورية حيث كل مرحلة تشكل نمطا معينا وفقا لمراحل التطور الثقافي، فكل المجتمعات حسب مورغان **تخضع لقانون واحد** خلال عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وبهذا يصل مورغان إلى أن البشرية تطورت عبر ثلاث مراحل تطورية هي :

أ- مرحلة الهمجية (التوحش): ويقسمها إلى ثلاث مراحل وهي مرحلة التوحش الدنيا ومرحلة التوحش الوسطى ومرحلة التوحش العليا، ويوضح مورغان أن هناك ارتقاء ثقافي خلال الانتقال عبر كل مرحلة في تقنيات العيش والنظم الاجتماعية.

ب- مرحلة البربرية: وتنقسم بدورها إلى ثلاث مراحل : دنيا ووسطى وعليا.

ج- مرحلة المدنية (الحضارة): وهي التي تتميز باختراع الكتابة والحروف الهجائية وهي مازالت مستمرة إلى اليوم.

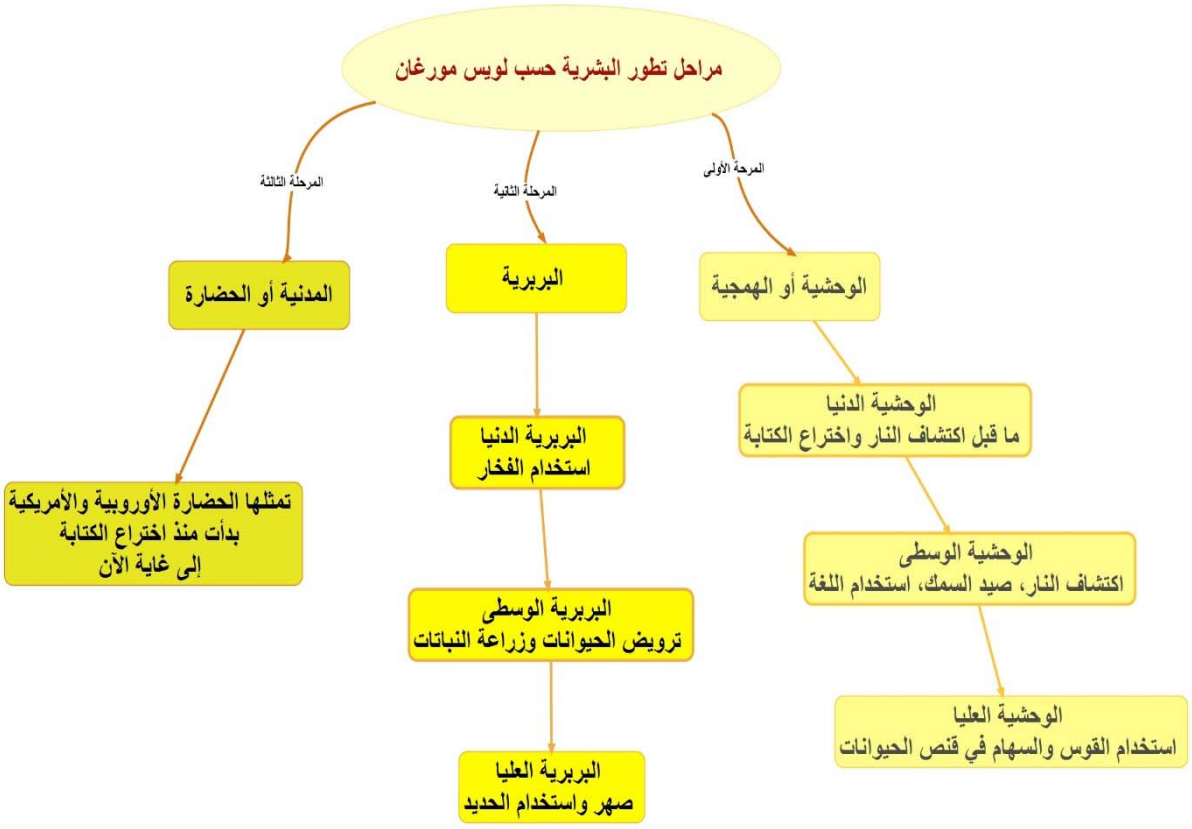

عنوان المخطط: مراحل تطور البشرية حسب لويس هنري مورغان.

وقد كان مورجان يرى مثل غيره من التطوريين أن المجتمعات الغربية تمثل أرقى المجتمعات والحضارات والسلالات البشرية، كما وضع مراحل تطور النظم العائلية: **مرحلة الإباحة المطلقة** (المشاعية الجنسية) تتميز بعدم وجود نظام للزواج كل النساء والرجال متاحين لبعضهم البعض/ ثم **مرحلة الزواج الجمعي** (زواج جماعة من الرجال بجماعة من النساء)/ ثم **مرحلة القرابة الأمومية** (القرابة تتبع نسب الأم)/ ثم **مرحلة القرابة الأبوية** (القرابة تتبع نسب الأب)/ ثم **مرحلة الأسرة الثنائية** (القرابة تتبع كل من نسب

الأب والأم على حد سواء). كما يرى أن النظام الاقتصادي قد هو كذلك بمراحل: جمع الطعام ثم الصيد والرعي ثم مرحلة الزراعة ثم مرحلة الصناعة.

المراحل التطورية		أسلوب الحياة	النظام الاجتماعي	المجتمع الذي يمثل المرحلة
الهمجية (التوحش)	الدنيا	ما قبل اكتشاف النار واللغة/ قطف الثمار والاعتماد على بقايا الجذور للأكل/ بداية الكلام المنطوق.	اختلاط بدائي/ عائلة رحيمية (زواج بين الإخوة والأخوات)	لم يجد مورغان مجتمع يمثل هذه المرحلة
	الوسطى	اكتشاف النار والاعتماد على الطهي/ الاعتماد على صيد السمك/ زوارق من لحاء الشجر/ استخدام اللغة.	عائلة بونانلية (زواج تعددي مع زوجات الأخوة/ زواج تعددي مع أزواج الاخوات)	سكان أستراليا الأصليين/ بولينيزيا (جزر بالمحيط الهادي)
	العليا	استخدام القوس والسهام في قنص الحيوانات/ أكل لحوم البشر	ظهور العشيرة أو القوم (جماعة موسعة تربطهم صلات القرابة)	بعض الهنود الأمريكيين
البربرية	الدنيا	صناعة الفخار/ زراعة الحبوب/ أدوات حجرية/ حياكة يدوية.	زواج أحادي لأجل قصير أو طويل بين رجل وامرأة.	هنود الأركواي
	الوسطى	تدجين وترويض الحيونات وزراعة النباتات/ الاعتماد على الري/ منسوجات من الصوف والكتان/ اكتشاف معدن البرونز.	ديموقراطية عسكرية يرأسها رئيس حربي/ بيوت مشتركة.	هنود ZONI وهنود HOPI
	العليا	صهر واستخدام الحديد/ الاعتماد على الطاقة الحيوانية/ اختراع الدولاب والعربات والسفن/ استصلاح الأراضي للزراعة/ هندسة معمارية ومدن.	الملكية الفردية/ عائلة بطريقة تعددية في صفوف الرجال ثم الزواج الأحادي	الإغريق القدماء/ العبرانيون.
المدنية (الحضارة)		منذ اختراع الكتابة والأبجدية إلى غاية الآن	ظهور الدول والمدن	الإغريق والرومان والمجتمعات الحديثة

عنوان الجدول: مراحل تطور البشرية حسب لويس هنري مورغان.

2/ إدوارد بيرنت تايلور (1832-1917):

يعد البريطاني **إدوارد تايلور** من رواد هذا الاتجاه، لقد اهتم تايلور بالثقافة، وهو صاحب التعريف الشهير للثقافة والذي أورده في كتابه "**الثقافة البدائية**" عام1871 ، وعلى الرغم من أنه انجليزي ينتمي للمدرسة البريطانية معقل الأنثروبولوجيا الاجتماعية وليس الثقافية، إلا أنه ساهم في إضفاء قيمة أكبر على مفهوم الثقافة، لقد كان تايلور يؤمن أن "المسارات الثقافية التي سلكتها الشعوب لم يكن لها أن تتكرر أينما كان على وجه واحد عبر تلك الحركة الأحادية.. .فقد كشفت له خبرته الميدانية في المكسيك عن أهمية الاتصال الثقافي ومحاكاة الشعوب الأخرى، مما جعله يعتقد بإمكانية أن التطور قد يتم بناء على مساهمات خارجية، وأنه كان والحالة هذه أشد تنوعا مما يظن البعض".

ورغم اهتمام تايلور بجوانب الحياة الاجتماعية المختلفة إلا أنه اشتهر أكثر بدراسة المعتقدات الدينية، ففي البداية بدأ الإنسان بالتفكير في الروح الملازمة للإنسان ثم تدرج في التفكير حيث اعتقد أن هناك أرواحا تسكن الطبيعة تماما مثل الروح التي تسكن الجسد، وفي الأخير توصل الإنسان إلى فكرة الإله الواحد كمرحلة أخيرة تعبر عن قمة تفكيره.

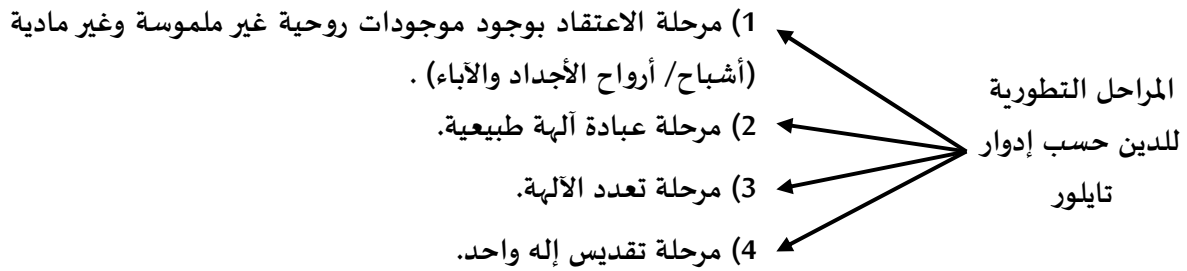

3/ جيمس فريزر (1854- 1941):

أنثروبولوجي اسكتلندي، بحث في مجال الديانات (الأساطير، الألوهية، الإيمان، الخلود والقرابين) حيث وصف في الأجزاء الإثني عشر من كتابه "**الغصن الذهبي Rameau d'or**" بعض الممارسات الدينية والعقائدية التي لاحظها من خلال دراسته وتتبعه لبعض الشعوب أو من خلال دراسات قام بها آخرون، ولعل هذا ما يرجع إليه نشأة الأنثروبولوجيا الدينية أو الميتولوجيا المقارنة.

مساهمة فريزر في المدرسة التطورية كان عن طريق نظريته **حول السحر وتطور المجتمعات**، حيث يرى أن المعتقدات الإنسانية تطورت من **مرحلة الإيمان بالسحر** إلى **مرحلة الدين** ثم إلى **مرحلة العلم**؛ حيث اعتقد الإنسان الأول أن بإمكانه السيطرة على الطبيعة بالسحر، ومع الوقت تبين له قصور هذه الطريقة فاتكل على الدين والآلهة وفوض أمره لها، ثم إحتكم إلى العلم في الأخير.

فوفق هذه التصورات تأسس الفكر الأنثروبولوجي التطوري والذي يعتقد اعتقادا مطلقا أن الظواهر الاجتماعية والثقافية غير ثابتة في الزمان والمكان؛ فهي في حركة دائمة ومستمرة ومن ثم فهي تنتقل من حالة إلى حالة أخرى بصورة طبيعية وذلك يعود أصلا إلى طبيعة عناصرها.

➢ **ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه نجد:**

- **انتقاد الديناميكية الثقافية:** يُعتبر أحد الانتقادات الرئيسية للاتجاه التطوري، حيث يفرض نموذجًا واحدًا للتطور الاجتماعي والثقافي، مما يتجاهل التنوع الثقافي والمتغيرات السياسية والاقتصادية وغيرها.
- **الأساس الايديولوجي:** والتمركز العرقي والسلالي حيث وضع أنصار التطورية الإنسان والمجتمع الأوروبي على قمة سلم الارتقاء للجنس البشري، بحيث وقعوا في مسألة التحيز العنصري من خلال تأكيدهم على التفوق العرقي الطبيعي للرجل الأبيض مقارنة مع السلالات والمجتمعات الأخرى.

- **الاعتماد على التاريخ التخميني:** فكثيرا ما كان يلجأ التطوريون إلى الظن والتخمين والافتراض لتأكيد صحة افتراضاتهم، بدلاً من الاعتماد على الوثائق والمستندات المكتوبة التي تؤكد صحة الواقع التاريخي المفترض.
- **الافتقاد للاستدلال العلمي الصحيح:** من بين الإنتقادات التي وجهت للتطوريين، أنهم يقومون بصياغة النظريات أولا، ثم يقومون بالبحث عن البقايا والدلائل في مختلف البقاع والمجتمعات التي تثبت صحتها، ويقومون بإخفاء الحقائق الميدانية التي تناقض نظرياتهم. وفي حالة وجدوا ثغرات معرفية كانوا يلجؤون إلى التاريخ الظني أو التخميني لملء هذه الثغرات وإكمال بناء نظرياتهم.
- **الاعتماد على معلومات غير دقيقة:** حيث كانوا يعتمدون على المعلومات التي جمعها الرحالة والمبشرون والعسكريون والإداريون، فالمادة الإثنوجرافية التي اعتمدوا عليها كانت ضحلة وغير دقيقة ولم يجمعها أنثروبولوجيون متخصصون.
- **غياب الدراسات الميدانية الحقلية:** باستثناء تايلور لم يعتمد التطوريون على دراسات ميدانية في جمع المادة الإثنوجرافية من المجتمعات التي قاموا بدراستها والكتابة عنها.
- **مسألة صحة التعميم وإهمال السياق العام:** ومن بين الانتقادت كذلك، عدم تطبيق الفروض على الثقافة في مجموعها وإنما على البعض الجوانب المختارة كالفن والمعتقدات والأسرة والزواج والدين، ثم تعميمها على الثقافات ككل. وكثيرا ما درست هذه الجوانب أو بعضها دون النظر كلية إلى الإطار الثقافي الشامل الذي صدرت عنه.

لكن رغم هذه الانتقادات والنقائص المسجلة يبقى الاتجاه التطوري من بين أهم الاتجاهات النظرية في الأنثروبولوجيا، حيث يعود الفضل للتطوريين في توجيه الاهتمام نحو دراسة الثقافة فقد كان تايلور أول من قدّم مفهوما شاملا للثقافة وخلصه من الخلط الذي كان موجودًا مع مفهوم العرف والسلالة والحضارة، كما كانوا أول من أدرك إمكانية قيام علم لدراسة الثقافة وشيّدوا الأسس الأولى لقيام الأنثروبولوجيا الثقافية. كما نجحوا في استثارة الباحثين للقيام بدراسات ميدانية فيما بعد.

ثانيا. الاتجاه الانتشاري (التاريخي –التجزيئي):

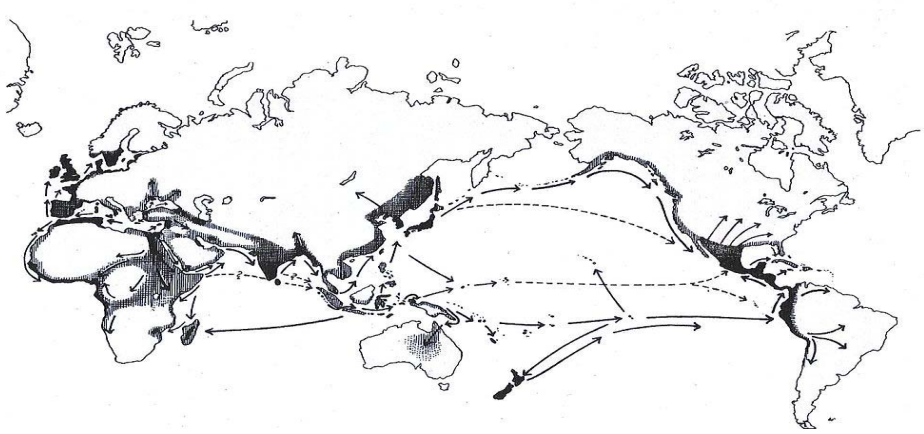

صورة مبسطة تشرح فكرة الانتشار.

جاء هذا الاتجاه كرد فعل مناهض للأفكار التطورية، برز لتفسير عمليات التغير الحضاري في تاريخ الإنسانية، حيث افترض المناهضون للتطور، أن الاتصال بين الشعوب المختلفة ينتج عنه بالضرورة **احتكاكا ثقافيا** و**عملية انتشار** لبعض أو كل **السمات الثقافية (الحضارية)** لمختلف الشعوب، وهو ما ركز عليه رائد المدرسة الجغرافية الألمانية **فريدريك راتزل**، حول أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية (الرحلات التجارية، الهجرة، الحروب والغزو، الكشوفات الجغرافية ..) بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري.

ومن أهم مبادئ الانتشاريين، أن انتشار أي عنصر يتطلب توافر **الاحتكاك والوقت**، مما يساهم ذلك في انتشار بعض العادات والتقاليد وغيرها من المظاهر الثقافي؛ بمعنى انتقال نظام أو نموذج ثقافي من مجتمع لآخر، مع الأخذ في الاعتبار الحواجز المانعة لهذا الانتشار، والتي تتلخص في **الحواجز الطبيعية** (العزلة في الصحراء أو الجبال أو البحار)، و**حواجز اجتماعية** خاصة بالانتشار الثقافي الديني والعقائدي، دون نسيان أهمية **العوامل النفسية** في فرض حواجز الانتشار الثقافي، فهي من أهم الحواجز المقاومة لانتشار العناصر الثقافية، لكونها متوقفة على مدى تقبل البيئات الثقافية المعنية بالانتشار واستقبال الثقافة الخارجية؛ وفي المقابل، فهي ترتبط بالخصوصية الثقافية وأهمية الاستعدادات النفسية والاجتماعية.

وتتوقف **سرعة الانتشار** على حجم المجتمع ومساحته ومدى تأثيره بالمجتمع الذي يحتك به، دون إغفال أنواع أخرى من الانتشار، مثل **الانتشار العمدي أو المقصود** (نشر ثقافة المستعمِر على المحتَل)، و**الانتشار بالصدفة** بفعل التأثر بمجتمع آخر. والانتشار الذي يتم نتيجة الاحتكاك المباشر بين الثقافات المختلفة، والانتشار الذي يتم نتيجة الاحتكاك غير المباشر عن طريق الكتب أو التكنولوجيا والوسائط المختلفة. مع التركيز من قبل أنصار هذا الاتجاه على أن نمو المجتمعات يتم بفعل الاحتكاكات الثقافية بين الشعوب، أكثر من التقليد والمحاكاة، وأن النمو مرتبط بالإبداع والإضافة والتعديل.

ومن خلال أسلوب **التتبع التاريخي** لنشأة النظم الاجتماعية والثقافية، يؤكد الانتشاريون أن لكل نظام اجتماعي وثقافي **بدايات وأصول انتشرت منه**، وانتقلت إلى مختلف المجتمعات بفعل **الاحتكاك والهجرة والتواصل** بين الشعوب، رغم فقدانها لبعض خصائصها عند امتزاجها بثقافات أخرى محلية.

وتأسيسا على ذلك، يؤكد الانتشاريون أن لكل شعب تراثه الثقافي المميز له، وأن التطور الثقافي ليس خطيا، وليس بالضرورة أن تكون هناك حتمية لوجود علاقة في التطور بين التكنولوجيا والنظام الثقافي، فكثيرًا ما وجد نظام ثقافي متطور، دون حضور تكنولوجيا متطورة؛ وهي الأفكار التي قادت الانتشاريين إلى اكتشاف **الدوائر الثقافية الأولى المركزية** وتتبع انتشارها من المركز، وعليه فالانتشار الحضاري يكون من وإلى المجتمعات؛ وهنا يبرز بوضوح أن السعي إلى إيجاد حلقات وصل بين الحضارات والعلاقات الترابطية والبحث في العوامل التاريخية، هو المنهج المفضل لدى الانتشاريين، والذي يقودهم حسب رأيهم إلى البرهنة على أن كل الحضارات صادرة عن مجتمعات معينة موحدة.

- وانقسم أنصار هذه النظرية إلى ثلاث مدارس مختلفة، يكمن الاختلاف بينها في نظرتها إلى أحادية أو تعدد المراكز الثقافية والحضارية التي نشأت فيها الحضارة وانتقلت بعدها إلى باقي أنحاء العالم، وتتمثل هذه المدارس في: المدرسة البريطانية، والمدرسة الألمانية والنمساوية، والمدرسة الأمريكية.

1) المدرسة البريطانية (أحادية المنشأ) :

عرفت **بأحادية المنشأ** أو مدرسة **المصدر الوحيد**، والتي ترى أن الحضارات كلها ذات منشأ واحد يختلف من فترة زمنية إلى أخرى، حيث تبدأ من منبع واحد ثم تنتشر السمات الثقافية عن طريق الاحتكاك إلى باقي المجتمعات الأخرى، ومن أبرز ممثليها **إليوت سميث**، الذي ركز أبحاثه على الآثار القديمة والهياكل البشرية فقد كان عالم آثار متخصص في دراسة الآثار المصرية القديمة؛ فحسبه أن **أصل الثقافات هو الثقافة المصرية القديمة**، وبتوفر الظروف الملائمة وزيادة الاتصالات، انتشرت عناصر تلك الحضارة المركزية واتسعت دائرة وجودها وتوزعت إلى باقي المجتمعات العالمية الأخرى، وقد وضّح أفكاره هذه في كتابه "**السفن**" عام 1917. كما برز **وليام جيمس بيري** تلميذ سميث مساندا لفكرة أحادية المنشأ في كتاب "**أطفال الشمس**" الصادر سنة 1923، والذي شرح فيه أن الحضارة المصرية هي مركز انتشار الحضارات. وفي نفس هذا الاتجاه، نجد الأنثروبولوجي البريطاني **وليام هالس ريفرز**. وقد اعتمدوا بشكل أساسي على تتبع الآثار التي وجدت في أنحاء العالم وكانت تشبه الآثار المصرية (مثل طرق الزراعة، الأهرامات، عبادة الشمس)، فقد افترضوا أن الشعوب الأخرى غير المصرية لم تكن لها القدرة على الإبداع والاختراع والابتكار مما دفعها إلى الاستعارة والتقليد من الحضارة المصرية.

2) المدرسة الألمانية النمساوية (تعددية المنشأ) :

وفي المقام الثاني نجد المدرسة **الألمانية والنمساوية** بفكرة **تعددية المنشأ** وتسمى أيضا **مدرسة المهاد الثقافية**، ظهرت هذه المدرسة تقريبا خلال النصف الأول من القرن العشرين (1910 بالضبط) وسادت تقريبًا لمدة أربعين سنة، حيث رفض رواد المدرسة على رأسهم ***ويليام شميدت*** و***فريتز جرابنور*** و***كوبيرز*** فكرة المنشأ الواحد للحضارة، وافترضوا بدلا من ذلك وجود **مراكز حضارية أساسية متعددة** من جهات متفرقة في العالم، نشأت ضمنها السمات الثقافية في العالم ثم انتشرت إلى باقي مناطق العالم، وعند التقاء الثقافات والحضارات الأساسية المرتبطة بالمراكز الحضارية فإنها تخلق **دوائر ثقافية** تضم سمات مشتركة ومختلطة لهذه الثقافات المركزية، بحيث تنصهر هذه السمات وتشكل تشكيلات مختلفة عن السمات الأصلية، وهو ما يفسر اختلاف تلك الثقافات عن الثقافات المركزية. كما رفضت هذه المدرسة كما هو الحال في المدرسة الأولى فكرة التطور الحتمي وفق قانون ثابت التي جاء بها الاتجاه التطوري. كما افترضت كذلك عجز الشعوب (غير شعوب المراكز الحضرية) عن الإبداع والابتكار والاختراع، لذلك فقد استبدلت ذلك بالاستعارة والتقليد من ثقافات شعوب المراكز الحضارية.

3) المدرسة الأمريكية:

أما المدرسة التي جمعت بين المدرستين، فهي **المدرسة الأمريكية** والتي أكدت على نشأة الثقافة من **مركز جغرافي واحد**، ولكنها شكلت **مراكز متعددة وموازية** لها، وأصبحت تتمتع **بالقدرة على إنتاج أشكال ثقافية مختلفة تماما عن أصلها**، بمعنى صرحوا بإمكانية **ابتكار وإبداع** الثقافات الأخرى لسمات جديدة (عكس المدرستين السابقتين). ومن أهم روادها **فرانز أوري بواس** الذي تركزت فكرته الأساسية على دراسة الثقافات كأنساق متكونة من أجزاء متداخلة، لكونها تشكل ثقافة كلية، واستطاع بذلك أن يتحقق من أن العملية الانتشارية ليست نتاج أفعال أوتوماتيكية للاتصال الثقافي، فالأفراد يغيرون في معناها وفي شكلها عندما يصبحون جزءا من النمط الثقافي؛ وسياقا على ذلك، يرفض **بواس** مبدأ اتساق التغير التطوري في كل المجتمعات، فالعناصر الثقافية هي كثيرة ومتشابهة وتوزع في مجتمعات مختلفة، وهذا التشابه هو بفعل الانتشار الثقافي، فحسبه أن معظم السمات الثقافية يمكن أن تتصف بالعالمية رغم عزلتها عن بعضها البعض، وأن لكل ثقافة خصوصيتها وسمات خاصة بها تتعلق بماضيها وحاضرها، فهي متميزة وفريدة في خصائصها. ومن أبرز رواد هذه المدرسة إضافة إلى **فرانز بواس** نجد كل من **كلارك ويسلر** و**كروبر** و**كلاكهون**. حيث عملوا على **تجزيء العناصر المكونة للثقافة** كل على حدة ثم **دراسة تاريخ وهجرة** هذه العناصر عبر المناطق والشعوب المختلفة واستعارتها بين هذه الشعوب عن طريق الاتصال بينها، كما يعود الفضل لأصحاب هذه المدرسة في الترويج لفكرة تعدد الثقافات وتنوعها (النسبية الثقافية).

1-3) كلارك ويسلر ونظرية المنطقة الثقافية ضمن المدرسة الأمريكية:

يعتبر كلارك ويسلر (1870- 1947) من أبرز رواد المدرسة الإنتشارية الأمريكية، من أهم مؤلفاته كتاب "**الهندي الأمريكي**" سنة 1917 وكتاب "**الإنسان والثقافة**" سنة 1923 وكتاب "**العلاقة بين الطبيعة والإنسان عند سكان أمريكا الأصليين**" سنة 1926، ومن أهم إسهاماته في المدرسة الأمريكية تطوير مفهوم "**المنطقة الثقافية Zone culturelle**"، هاته الأخيرة تعني" المنطقة الجغرافية التي يوجد فيها قدر معقول من التشابه الثقافي، والهدف من وضع هذا المفهوم هو تصنيف وتقسيم ثقافات العالم حسب تشابهها إلى مجموعات ثقافية لفهم مصدر الثقافة والوقوف على مدى تشابه عناصرها في بعض المجتمعات المتجاورة. ومن أجل تحديد المنطقة الثقافية لا بد من تحديد عناصر تلك الثقافة ومدى انتشارها (كطريقة الحصول على الطعام، طرق الطهي، أدوات الصيد والزينة أو البناء ...الخ) ومن ثم يتم تحديد مركز المنطقة الذي تتركز فيه معظم العناصر الثقافية المنتشرة في المنطقة ثم الهامش الذي تقل فيه العناصر الثقافية تدريجيا لاختلاطها بثقافات أخرى.

حيث عمل ويسلر ضمن أحد المتاحف واهتم بجمع الآثار والمخلفات المتعلقة بالحضارات القديمة، وطوّر مفهوم المنطقة الثقافية من خلال جمعه للكثير من العناصر والسمات الثقافية وتوزيعها حسب المناطق الجغرافية التي تنتمي إليها، حيث اتخذ المنطقة الثقافية كأداة لتصنيف الثقافات من خلال مجموعة من العناصر الثقافية بالنظر إلى الأقاليم الجغرافية التي تنتمي إليها، سواء كانت السمات والعناصر الثقافية المادية (أدوات، أواني، مساكن، لباس...) أو غير مادية (طريقة التنظيم، العادات، التقاليد، المعتقدات، الطقوس والممارسات...)، وبعد توزيعه لهذه السمات على المناطق والأقاليم الجغرافية اكتشف أنها تميل للتجمع في مناطق جغرافية معينة (أقاليم) سمّاها **المناطق الثقافية**، فعلى سبيل المثال اكتشف لدى شعوب وقبائل سكان أمريكا الأصليين وجود 15 منطقة ثقافية موزعة على أقاليم مختلفة. واعتمد على المبادئ التالية في تصنيف المناطق الثقافية:

- كل شعب من الشعوب أو من قبائل المنطقة الثقافية يتميز بوجود العناصر والسمات الثقافية المميزة للمنطقة بدرجة تقل أو تزداد من شعب إلى آخر (أي أن جميع شعوب المنطقة ليست متطابقة ثقافيا)؛
- بعض شعوب أي منطقة ثقافية (وفي الحالات المثالية، تلك الواقعة في المركز الجغرافي أو قريبا منه) تتميز **بكل** العناصر والسمات الثقافية المميزة لتلك المنطقة أو **غالبيتها العظمى** على الأقل؛ توصف تلك الثقافات بأنها **طرازية** أو **ممثلة** للمنطقة وتمثل **المركز الثقافي** لتلك المنطقة الثقافية؛
- باقي شعوب المنطقة الثقافية (وفي الحالات المثالية، تلك التي تتجمع خلف منطقة المركز الجغرافي) تتميز بقدر أقل من العناصر والسمات الثقافية المميزة لتلك المنطقة الثقافية، ويتقلص عدد تلك العناصر والسمات تبعًا لدرجة بعد هذه الشعوب عن المركز الثقافي للمنطقة الثقافية؛

– الشعوب التي تعيش على حافة المنطقة الثقافية أو على الحدود مع مناطق ثقافية أخرى تكون ذات ثقافات **هامشية أو مختلطة**، بحيث تكون عناصر وسمات ثقافتها مشتقة من أكثر منطقة ثقافية وتمثل **الهامش الثقافي** للمنطقة الثقافية.

➢ كما أنتج ويسلر أيضا مفهوم "**المنطقة الزمنية**" أو ما يعرف بنظرية "**العمر والمنطقة**"، والذي يهتم بمقارنة عمر العنصر الثقافي في المناطق المختلفة، وللإشارة فإن هذا المفهوم لم يلق نفس النجاح الذي لاقاه المفهوم السابق. حيث يقوم هذا المفهوم على المبادئ التالية:

– العناصر والسمات الثقافية داخل المنطقة تتجه للانتشار بنفس المعدل والسرعة في جميع الاتجاهات انطلاقًا من المركز (نقطة المنشأ)؛
– المنطقة التي انتشر فيها عنصر معين تدّل على عمر هذا العنصر بالقياس إلى العناصر الأخرى المنتشرة داخل نفس الإقليم، فمثلا عنصران ثقافيان (أ) و (ب) انتشرا من نفس المصدر، إلا أن (أ) انتشر في أقاليم أوسع من (ب)، فهذا يدل على أن العنصر (أ) أقدم في النشوء من العنصر (ب)؛
– المركز الثقافي في المنطقة الثقافية يعتبر نقطة المنشأ (على الأقل داخل تلك المنطقة) الذي ظهرت فيه عناصرها المميزة ثم انتشرت إلى الخارج اتجاه حدود وهوامش المنطقة الثقافية، فالعناصر والسمات الموجودة على الحدود تمثل أقدم العناصر لأنها انتشرت على أوسع نطاق، وكلما اتجهنا نحو المركز يقل تدريجيًا عمر العناصر الثقافية الموجودة فيها.

➢ لكن هذه النظرية تعرضت لجملة من الانتقادات التي أبرزت مكامن النقص فيها من خلال النقاط التالية:

– أن العناصر الثقافية نادرًا ما تنتشر بنفس المعدل في جميع الاتجاهات انطلاقًا من مركز نشأتها، فهناك بعض العوامل التي تعيق انتشار عنصر ما في اتجاه معين وتعجل به في اتجاه آخر (خاصة العوامل الجغرافية والاجتماعية)، فمثلا طرق التجارة تعجل بانتشار هذه العناصر في الأقاليم التي تكون على طريق التجارة بسرعة أكبر من الأقاليم التي لا تكون على طريق التجارة. ومثلا بعض العناصر كالزراعة بدون ري لا تستطيع الانتشار في إقليم غير مناسب كالصحراء الجافة مثلا. وبعض العناصر كبعض الطقوس وبعض العناصر اللغوية قد تنتشر بسرعة أقل من عناصر ثقافية أخرى كالأدوات أو المساكن أو الأواني أو الملابس.

– أن الانتشار دائما يبدو كعملية اختيارية، فبعض الشعوب لا تقبل كل العناصر الثقافية التي تفد إليه، كما أن العناصر الجديدة التي يمكن أن تكون مقبولة في فترة معينة من تاريخ هذه الشعوب قد ترفض بنفس الدرجة في فترة تاريخية أخرى؛

– أن الانتشار ليس عملية ميكانيكية (يتم بنفس الطريقة بالنسبة لجميع العناصر الثقافية في جميع الأوقات)، بل هو عملية بالغة التعقيد يخضع لكثير من الظروف والاعتبارات الثقافية والاجتماعية والجغرافية.

- **الثقافة= مجموع النظم والعادات والتقاليد في مجتمع أو جماعة معينة**
- **النظام الثقافي= مجموع النماذج أو المركبات الثقافية المترابطة والمتفاعلة (مثلا النظام الديني :الطقوس، الشعائر، الدور الاجتماعي للمؤسسة الدينية، رجال الدين)**
- **النموذج الثقافي= عدد من السمات الثقافية المترابطة، وهو نمط متكرر من السلوك أو التفكير يتفق عليه أفراد ثقافة معينة (مثلا: نموذج الاحتفال بالزواج :الخطوبة، العرس، الغناء والرقص الشعبي)**
- **السمة الثقافية= هي أبسط وأصغر وحدة أو عنصر في الثقافة، أي عنصر ثقافي واحد يمكن عزله وتحليله. (مثلا: ارتداء "البرنوس" في الأعراس أو المناسبات)**

في مجمل القول، يرى أصحاب الاتجاه الانتشاري (على اختلاف مدارسه) أن الاتصال بين الجماعات والشعوب أدى إلى انتشار بعض السمات الثقافية، فعملية الانتشار الثقافي تنطلق من مركز ثقافي إلى باقي المناطق كما أن الانتشار يتم أيضا من خلال انتقال السمات الثقافية من جماعة سابقة إلى جماعة لاحقة، وبصفته عامة فإن الاتجاه الأنثروبولوجي الإنتشاري يتابع الانتشار الثقافي الذي يعني انتقال نظام أو نموذج ثقافي من مجتمع إلى آخر، وذلك كأن يستعير مجتمع من مجتمع آخر بعض نماذجه الثقافية أو أدواته أو نظمه يستخدمها في حياته بطريقة تتلاءم مع ظروفه الاجتماعية وبيئته الطبيعية المحيطة، وقد يأخذ مجتمع ما بعض النماذج دون تحوير أو تغيير، أي يقوم باستخدامها كما هي.

إن النماذج الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية الحية تسافر من فضاء إلى فضاء آخر من مجتمع إلى مجتمع آخر ومن شعب إلى شعب آخر فتخرج من فضائها الأصلي لتقتحم فضاءً جديدا ...وقد ينتج عن هذا السفر والاستقرار هناك فقدانها بعض الصفات والعناصر المكونة لها، واكتسابها صفات وعناصر جديدة تماشيا والإطار البشري والثقافي والاجتماعي الجديد ...كما تنتقل من جيل إلى آخر، أي من الجيل المبدع إلى الجيل المقلد، لذلك يتكفل الباحث الأنثروبولوجي الانتشاري بتتبع هذه النماذج المتنقلة والمنتشرة عبر عدد من المناطق، فيسعى إلى تحديدها وتحديد مسار حركتها وانتشارها ومقارنة حالاتها في موطنها الأصلي، ثم في موطنها الجديد مع قراءة لما تشيعه من دلالات وما ترمز إليه من أنماط فكرية للشعوب سواء المبدعة لهذه النماذج أم الشعوب المستقبلة لهذه النماذج والمتأثرة وكيفية التفاعل معها.

ولعل ما يمكن الإشارة إليه أن قنوات انتشار النماذج الثقافية عديدة ومتنوعة فمن عامل الجوار أي وجود مجتمعات متقاربة ومتجاورة تتأثر ببعضها البعض، إلى عامل السياحة حيث يسافر الأفراد عبر مناطق مختلفة محملين بنماذج ثقافية من ثقافتهم الأصلية كما يعودون إلى موطنهم الأصلي محملين بنماذج ثقافية من المجتمعات التي استقبلتهم، إلى عامل الحروب والاستعمار وما يفرضه من نماذجه الثقافية على الشعوب التي يستعمرونها. وعليه يمكننا القول أن الانتشار بصفة عامة يعني انتقال خاصيات النظم الثقافية من مجتمع إلى آخر أو من منطقة

إلى أخرى عن طريق عملية الاتصال والإحتكاك بين الشعوب سواء عبر التجارة أو الحروب أو الإحتلال أو وسائل الاتصال الأخرى.

➢ **ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه بصفة عامة نجد:**

- **التبسيط الزائد:** يعتبر بعض النقاد أن الاتجاه الانتشاري يقوم بتبسيط التفاعلات الثقافية وتأثيرات الانتشار، دون مراعاة التنوع والتعقيدات الفردية للثقافات؛
- **تجاهل السياق المحلي:** يتهم الاتجاه الانتشاري بتجاهل السياق المحلي والظروف الخاصة التي ينشأ فيها التفاعل الثقافي، مما يؤدي إلى تقديم تفسيرات سطحية وغير دقيقة؛
- التركيز على تشابه شكل الثقافات المتمايزة دون النظر إلى ما تحمله من معان مختلفة، والتفسير الأحادي لعملية التغير والتطور الثقافي بإرجاعه إلى الانتشار أو الاقتباس الناتج عن الاحتكاك بين الشعوب والمجتمعات دون الأخذ بالعوامل الأخرى؛
- إهمال قدرة الإنسان على الاختراع في كل المجتمعات على حد سواء، وقصر النظرية عن تقديم تفسير لكيفية انتقال العناصر الثقافية بين الشعوب والقبائل خاصة المتباعدة عن بعضها زمانيا أو مكانيا.

ثالثا. الاتجاه البنائي الوظيفي:

جاء هذا الاتجاه كردة فعل عن الاتجاهات التي تبحث في أصل الثقافات (لاسيما الاتجاه التطوري والانتشاري)، وتعود بواكير هذا الاتجاه إلى **مونتيسكيو**، إلا أن فضل توجيه انتباه الأنثروبولوجيين إلى التحليل الوظيفي ومن ثم البنائي يعود خاصة إلى **هربرت سبنسر** و**إيميل دوركايم**، **اللذان شبها المجتمع الإنسان بالكائن الحي من حيث البناء والوظيفة**، فالمجتمع حسبهما ينمو ويتطور بإطراد كما هو الحال بالنسبة للكائن الحي، كما أن تقسيم العمل فيه يتم تماما كما تتوزع الوظائف العضوية في البناء العضوي، واستخدم سبنسر فكرة **المماثلة البيولوجية (العضوية)** لإيضاح وظائف النظم الاجتماعية من منطلق أن الظواهر الاجتماعية ليست منعزلة وإنما **متفاعلة ومتكاملة** وينشأ عن هذا التفاعل والاتحاد ما يعرف بـ "**الكل الاجتماعي**"، هذا الكل يتكون من أجزاء مترابطة مع بعضها البعض من خلال الوظيفة التي تؤديها لتؤمن تماسك المجتمع؛ ومن هنا تشير الوظيفة إلى **الإسهام الذي يقدمه الجزء للكل**، وهذا الكل قد يكون متمثلا في مجتمع أو ثقافة.

تُعنى النظرية الوظيفية أو الاتجاه الأنثروبولوجي الوظيفي بدراسة ما تؤديه **العناصر الثقافية والاجتماعية من وظائف ضمن البناء الاجتماعي والثقافي الشامل**، فيسعى الوظيفيون في مقاربتهم للظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية إلى **مبدأ التفتيت**، أي تجزئة الظاهرة إلى عناصر صغرى ومتابعة

ما يؤديه كل عنصر من وظيفة سواء في إطاره المحدد أم في علاقته مع العناصر الأخرى وفق **قانون التفاعل والانسجام الوظيفي** ضمن **السياق الاجتماعي أو الثقافي أو الاقتصادي أو السياسي أو الديني.**

هنا نجد أن الوظيفيين الأنثروبولوجيين **يشبّهون المجتمع بجسم الإنسان وأعضائه**، فهو يتكون من مجموعة أعضاء والتي لا تحدد ماهيتها إلا بما تؤديه من وظائف مكملة لبعضها البعض، وأن أي خلل يصيب عضوا من هذه الأعضاء أو عرقلة في تأدية وظيفة قد يؤثر في النظام العام والشامل لكل الأعضاء الأخرى، وبالتالي يؤثر سلبا في الجسم ككل، فالمجتمع يقوم أصلا ويتكون من مجموعة من المظاهر والمؤسسات والممارسات والأنظمة، وبالتالي فإن كل هذه المظاهر والمؤسسات والأنظمة مرهونة من حيث الحركة والحضور ومن حيث الفعل والكينونة لما تؤديه وظائف تكسب المجتمع بناء محكما ومنسجما من حيث التكوين ومن حيث الوظيفة والديناميكية الشاملة، يذكرنا هذا التشبيه الذي ربط به الوظيفيون المجتمع بالجسم الإنساني بذلك التشبيه الذي صنعه **مالينوفسكي** بين الثقافة والكائن الحي فالثقافة حسب رأيه عبارة عن **كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي**، بحيث أنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أي عضو من أعضائه إلا في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم، ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان بباقي أعضاء الجسم للإنسان، فإن دراسة الدور والوظيفة التي يؤديها كل عنصر ثقافي تمكن الباحث من اكتشاف ماهيته وضرورته، فمفهوم الوظيفة في نظر مالينوفسكي يعني **الدور** أو **الإسهام** الذي يقوم به كل نظام اجتماعي في مجتمع ما سواء كان هذا المجتمع مجتمعا بسيطا أم مجتمعا مركبا.

فرواد المدرسة الوظيفية يدرسون الثقافة وفق مبدأ **التكامل الثقافي**، فهم يرون أنه لا يمكن فهم أي نظام أو نموذج أو سمة ثقافية بمعزل عن الأنظمة والنماذج والسمات الثقافية الأخرى، لذلك يرون أنه من واجب الأنثروبولوجي دراسة العلاقات المتبادلة والتأثير المتبادل بينها. من خلال تحديد علاقة كل سمة بالسمات الاخرى أي تحديد **الدور والوظيفة** الذي تقوم به داخل النموذج أو النظام الثقافي، وذلك لا يكون إلا بالبحث عن **الوظيفة الحقيقية** للسمة الثقافية (والتي تكون كامنة وغير واضحة وتختلف عن الوظيفة الظاهرة لها)، فالوظيفة الحقيقية لا تتضح إلا من خلال الدراسة الأنثروبولوجية. فمثلا كل من الحناء والخاتم والفستان والوليمة وغيرها من مظاهر الزفاف، كلها سمات ثقافية لكن لكل سمة منها دور ووظيفة يختلفان عن دور ووظيفة الاخرى، وكل سمة لا تعيش وحدها مستقلة في الفراغ بل هناك صلات وتأثيرات متبادلة بينها. كما تختلف وظيفة السمة الواحدة من ثقافة إلى أخرى أو من نموذج ثقافي إلى آخر في نفس الثقافة، فمثلا القوس قد يستخدم للدفاع عن النفس أو للحصول على الطعام وقد يستخدم في الطقوس الدينية والسياسية كرمز وقد يستخدم في إشعال النار كما يستخدم للأغراض الموسيقية. فلكي نفهم وظيفة أي سمة يجب أن ندرس علاقاتها بالسمات الأخرى. أي ندرسها ضمن **السياق** الذي تتواجد فيه لا منعزلة.

فالاتجاه البنائي الوظيفي عُرف بأنه لا تاريخي ولا تطوري، فهو لا يهتم بدراسة أصل الثقافات ولا كيف تنتشر، وإنما يهتم بدراستها دراسة آنية ودراسة كيف تعمل الأجزاء التي تكون الثقافة في إطار السياق العام، من خلال البحث عن الوظائف والأدوار التي تؤديها.

فالبحث الأنثروبولوجي الوظيفي قد اتصف بأنه **لا تطوري، لا تاريخي**، إذ ركز على دراسة الثقافات كل على حدة في **واقعها وزمانها الحالي**، أي دراسة **آنية** لا تزامنية، ويبدو أن ما يميز الاتجاه الوظيفي هو نزول الباحثين إلى الميدان، فالوظيفيون لا يؤرخون للعناصر الثقافية والاجتماعية ولا يبحثون في أصولها التاريخية ولا في منطق انتشارها، وإنما يسعون إلى البحث في وظائفها وفي علاقتها مع بعضها البعض ضمن البناء الاجتماعي والثقافي الذي أوجدها وتطعم بحركتيها وبوظائفها، ويعبر الاتجاه البنائي–الوظيفي في جملته عن منهج تم التوصل إليه من خلال المقابلة والموازنة بين الجماعات الإنسانية (المجتمعات)، والكائنات البشرية (الأفراد)، ولم يعد استخدامه مقصورا على الأنتروبولوجيين، وإنما تناوله علماء الاجتماع بالفحص والتطبيق كما ارتبط أيضا بالعلوم الطبيعية.

فهذا الاتجاه لا يبحث عن أصل الثقافة ولا كيف تنتشر، إنما يهتم بدراسة **ديناميات الثقافة** (أي كيف تعمل الأجزاء التي تكوّن في مجموعها ثقافة ما)، يبحث في الوظائف التي تؤديها النظم المختلفة داخل الثقافة الواحدة، ويبين الوظائف التي تقوم بها السمات ويدرس علاقة هذه السمات ببعضها البعض وكيف تقوم كل منها بوظائفها، ثم يقارن بين السمات الثقافية المتشابهة الموجودة بين الثقافات المختلفة والوظائف التي تقوم بها داخل تلك الثقافات. فقد رفض رواد هذا الاتجاه المنهج التاريخي، فهم يرون أن الطريقة العلمية لدراسة الثقافات أو الظواهر الإنسانية هي الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الثقافة أو الظاهرة وعلاقتها بغيرها من الثقافات والظواهر، ثم الوصول إلى القوانين التي تحكم الظاهرة من ناحية تكوينها وأدائها لوظيفتها.

واستنادا إلى ذلك يصبح الاعتراف بالتنوع الثقافي بين المجتمعات إحدى الخطوات الهامة في تطور علم الأنتروبولوجيا، وقد وجد هذا الاتجاه قبولا واسعا لدى المهتمين بدراسة الثقافات الإنسانية في النصف الأوّل من القرن العشرين، ولاسيما بين الأنتروبولوجيين الأوروبيين الذين انتشروا في المستعمرات لإجراء دراسات ميدانية، وجمع المواد الأوّلية اللازمة لوصف الثقافات في هذه المجتمعات، وتحليلها في إطارها الواقعي، وكما هي في وضعها الراهن.

❖ رواد الاتجاه البنائي الوظيفي:

ويعود الفضل في تطوّر الاتجاه البنائي–الوظيفي في الدراسات الأنتروبولوجية إلى أفكار العالمين البريطانيين "**برونسلاو مالينوفسكي (1884– 1942)**، و**راد كليف براون (1881– 1955)**" اللذين عاشا في أواخر القرن التاسع عشر، والنصف الأوّل من القرن العشرين، وبدرجة أقل "**إيفانز بريتشارد (1902– 1973)**" تلميذ راد كليف براون. وقد تأثر أصحاب هذه النظرية بأفكار عالم الاجتماع الفرنسي

"**إميل دوركايم**" الذي ركزّ اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية، وليس على تاريخ تطوّر هذه المجتمعات والسمات العامة لثقافاتها. كما كان "**راد كليف–براون**" مثل دوركايم ينكر الإرث أو الاتجاه النشوئي، ويطمح لتأسيس أنتروبولوجيا محترفة، مرتكزة على الثقافة العلمية وليس على الأدبية، أي يؤسس لعلم طبيعي ونظري للمجتمع، وفي محاولته لتحقيق هذا الطموح تلاقى راد كليف–براون مع دوركايم في عدم الثقة بالتاريخ التخميني، وفي تحليل وتشكل انتظام المجتمع الذي يعتبر وحدة عضوية.

وإذا كان كل من براون ومالينوفسكي وظيفيين في اتجاههما العام من حيث تركيزهما على دراسة البنيات المجتمعية في زمنها الراهن، إلا أنهما اختلفا في نظرتهما لمفهوم الوظيفة، حيث كان مالينوفسكي يهتم أكثر **بمفهوم الثقافة وتحديد الوظائف التي تؤديها**، وفي المقابل اهتم براون أكثر **بالعلاقات الاجتماعية أو البناء الاجتماعي**، ذلك ما يعكس تأثره بالمدرسة الوضعية التي تزعمها إيميل دوركايم، والتي تؤمن بقدرة العلوم الاجتماعية على اكتشاف القوانين المتحكمة في الظواهر، بالإضافة إلى اتجاهه لاستعارة منهج البيولوجيا وتطبيقه على المجتمع.

حيث برز برانسلاو مالينوفسكي في دراسته الحقلية التي قام بها على سكان **جزيرة التروبرياند**، حين أقام معهم لمدة أربع سنوات كاملة أرسى خلالها قواعد العمل الحقلي على أسس صلبة، وكان له الفضل الكبير في نجاح الأنثروبولوجيا كعلم مستقل، وأصدر كتابه بعد هذه الدراسة بعنوان "**بحارة غرب المحيط الهادي الجسورون**" سنة 1922. فقد قدم مالينوفسكي مفهوم الوظيفة في دراسة الثقافة، حيث يرى أن وظيفة الثقافة في أي مجتمع من المجتمعات هي **تلبية الاحتياجات البيولوجية للإنسان** (والتي حددها بخمسة احتياجات هي: التغذية، الإنجاب، الراحة البدنية، الأمان والاسترخاء، الحركة والنمو)، حيث تنشأ النظم الاجتماعية لتلبية هذه الاحتياجات، فكل مؤسسة اجتماعية بمثابة عضو يلعب دورًا وظيفيا هاما. فمثلا ينشأ نظام الزواج والأسرة لإشباع الاحتياجات الجنسية ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، بينما يقوم المسكن والملبس بمكنان الجسم من الحصول على الراحة والتوافق البدني والنفسي. وهو يرى أنه من أجل استمرار الثقافة في أداء وظائفها فمن الضروري أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب مثلا، ولابد من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدي إلى قيام نظام اجتماعي متماسك متصف بالاستقرار والاستمرارية. فمالينوفسكي قد اعتمد على الوظيفة كأداة منهجية لفهم الدور أو الإسهام الذي يقوم به كل نظام في حياة المجتمع كله، فدراسة الوظيفة والدور الذي يؤديه كل عنصر ثقافي تمكن الأنثروبولوجي من ماهية ذلك العنصر وضرورته. فهو يبحث عن السؤال: **كيف تعمل مجموعة من العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية على تلبية احتياجات الأفراد الجسمية والنفسية؟**

من جهته، يرى راد كليف براون أن المجتمعات هي كائنات بيولوجية، بمعنى أن هناك تشابها حقيقيا بين البناء العضوي والبناء الاجتماعي، وما على الباحث إلا أن يدرس عناصر البناء الاجتماعي بغرض الكشف عن تفاعلات هذه العناصر التي تشكل من خلال تفاعلها نسقا قائما بذاته، ثم يقوم بعد ذلك باستنتاج القوانين الوظيفية لمجتمع أو مجتمعات معينة، والانتقال بعدها إلى تعميمات عن طبيعة المجتمعات الإنسانية. فمن خلال دراسته الحقلية التي أجراها على سكان **جزر الأندمان** حين عاش معهم لمدة سنتين، ذهب إلى أن أسس العمل الحقلي لا يجب أن تكتفي بالوصف فقط بل عليها أيضا أن تسعى للتحليل والتفسير الاجتماعي. وقد ركّز براون على مسألة **البناء الاجتماعي** القائم على العلاقات الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، فهو يرى أن البناء الاجتماعي هو نسيج متشابك من العلاقات الاجتماعية والتفاعلات بين مختلف النظم الاجتماعية، وقد أرسى هذا المفهوم خلال مقاله المنشور سنة 1940 بعنوان "***محاضرة في البناء الاجتماعي***". بينما نظر إلى الثقافة كأنها كائن حي ينمو ويتطور، فكما أن الكائن الحي مكون من خلايا كل يقوم بوظيفة معينة وعن طريق قيام هذه الخلايا بوظائفها يحيا الكائن الحي ويتطور، فكذلك الثقافة كائن حي يتكون من نظم وعادات وتقاليد ونماذج وسمات لكل منها وظيفة تؤديها داخل "الكل" الثقافي الذي يتغير تبعًا لهذه الوظائف. بصفة عامة كان يبحث راد كليف براون عن السؤال: **كيف يمكن الحفاظ على التضامن والتكامل والترابط بين مكونات الكيان أو البناء الخاص بمجتمع معين؟**

➢ ومن أهم الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه نجد:

- **تبسيط الهياكل:** ينتقد بعض الأكاديميين الاتجاه البنائي الوظيفي لتبسيطه الهياكل الاجتماعية والتقديرات الوظيفية، دون مراعاة التنوع والتعقيدات الثقافية؛
- **تجاهل التغيير:** يعتبر الاتجاه البنائي الوظيفي بأنه يتجاهل التغييرات التاريخية والتحولات الاجتماعية، مما يجعله غير قادر على تفسير التطورات والتغيرات في المجتمعات؛
- إهمال الأسس التاريخية: كون التحليل البنائي الوظيفي أهمل تاريخ الإنسان ولم يبحث في أصول أو سيرورة الثقافة؛
- **إهمال الجانب الفردي:** كما أنه أهمل الجانب الفردي في الفعل الإنساني برده كل سلوك إنساني للأفعال الاجتماعية؛
- **إهمال الصراع والتغير الاجتماعي:** وتركيزها على التوازن والتكامل، حيث كانت تدرس النظم كأنها في حالة استقرار وثبات دائمين؛
- كما عيب على بعض نتائجها أنها قائمة على التخمين؛
- عدم الاهتمام كثيرا بالمقارنات بين وظائف السمات الثقافية في المجتمعات المختلفة؛
- عدم التفريق في دراسة الوظائف التي تقوم بها السمات والنماذج بين الوظائف الرئيسية والوظائف العرضية؛

وختاما يمكن القول أن الاتجاهات الأساسية في الأنثروبولوجيا تشكل مجموعة متنوعة ومتعددة الأوجه تسعى إلى فهم البناء الاجتماعي والثقافات البشرية وتفاعلها . فالاتجاه التطوري يركز على تطور المجتمعات البشرية وتطورها عبر الزمن، بينما الاتجاه الانتشاري يهتم بانتشار الثقافات وتأثيراتها على مختلف المجتمعات. أما الاتجاه البنائي الوظيفي فيركز على الهياكل والوظائف الاجتماعية في المجتمعات. وهذه الاتجاهات تعكس تنوع الاهتمامات والمناهج في مجال الأنثروبولوجيا، وتساهم في إثراء فهمنا للبشرية وثقافاتها المتعددة.